الفصل الخامس

طبيعة جزيرة العرب وثرواتها وسكانها

لم تدرس طبيعة أرض جزيرة العرب دراسة علمية مستفيضة شاملة ، بالرغم من قيام الشركات الأجنبية بالبحث ، في أنحاء منها ، عن طبيعة تربتها للتوصل بذلك الى اكتشاف ما في باطنها من ثروات . فـأرض جزيرة العرب ، أرض واسعة ، تغطي الرمال أكثر مساحاتها ، فليس من السهل البحث فيها بحثاً علمياً عميقاً عن تركيبها وعن تطورها في كل أنحائها ، لهذا كان علمنا بهذه النواحي من البحث ضحلاً مختصراً في الغالب .

يتألف ثلثا الأقسام الشرقية من أرض المملكة العربية السعودية ، من طبقات رسوبية يقال لها في علم طبقات الأرض (Sedimentry Formation) ، تكون نوعاً من الصخور يتأثر ببعض المؤثرات الأرضيـة ، فتكون من أحسن الأماكن الملائمة للبترول والفحم . وتتألف هذه الطبقات الرسوبية في الدرجـة الأولى من الحجارة الكلسية . وتتكون أرض منطقة آبار البترول عند (الظهران) والمناطق الأخرى التي أصابت شركة البترول العربية السعودية الأمريكية فيها البترول ، من هذا النوع من الصخور[1] .

وتوجد آثار طبقات رسوبية في المناطق الغربية من جزيرة العرب المطلة عـلى

---

١ Twitchell, Saudi Arabia, P., 8.

البحر الأحمر عنـــد جزر (فرسان)[1] و (جيزان)[2] و (صبيا)[3] و (أملج)[4] و (المويلح)[5] الواقع على مقربة من رأس خليج العقبة ، و (ضبا)[6] ، وحجارة رملية في العلا في القسم الشمالي الغربي من الجزيرة بكميات واسعة ، وحجارة بركانية ولا سيما في مناطق الحرار،وصخور تكونت بفعل الترسبات المتأثرة بالضغط والحرارة ، وهي التي يقال لها : (Metamorphic Formation) ، وتساعـــد على تكوين المعـــادن . وقـــد وجدت في هذه المنطقة[7] ، خامات المعادن ولكنها لم تستغل حتى الآن استغلالاً تجارياً ، كما أن هذه الخامات والأرضين لم تفحص فحصاً فنياً لمعرفة النسب المعدنية فيها .

وتوجد الصخور الرملية في عسير وفي وادي الدواسر ، وتشاهد في منطقة هذا الوادي تلال تتجه من الشمال الى الجنوب ، تقع الى جنوب (الحماسين) وعلى ارتفاع (٢٢٠٠) قـــدم ، يظهر أنهـــا تكونت من الصخور (الأيولينية) (Aelian Sandstone) ومن حجارة « الكوارتس » الضخمة ، وقـــد حوت مقداراً من (أكاسيد الحديد) أعطت هذه السلسلة لوناً أحمر غامقـــاً . ويتكون فتات هذه الحجارة على هيأة ألواح صلبة ، وعند قطعها يلاحظ أنها تتكون من طبقات ، ويمكن فصلها على أشكال ألواح ، وقـــد تكونت على حافات هذه السلسلة وجوانبها أشكال طبيعية مدهشة أخاذة بتأثير فعل الرياح والرمال فيها .

وتتكون أرض (قرية) من صخور كلسية ، وهناك آبار قديمة تبلغ أعماقها

---

١ وهبة ص ٤٠ ، البلدان (٣٥٩/٦) ، صفة ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٨ ، Twitchell, P., 8, 63.

٢ (ميناء صغير على بعد مئتي ميل من جنوب الجنوب الشرقي للقنفذة ، وهـــي واقعة امام مجموعة جزائر فرسان ، ويحيط بها من جهة الداخل جبل جيزان)، وهبة ص ٤٠ .

٣ البلدان (٣٣٧/٥) ، صفة ٥٤، ٧٣ ، ١٢٠ (صبيا على بعد عشرين ميلا في الداخل وهي الى الجنوب الشرقي من جيزان ، وكانت عاصمة الادراسة) ، وهبة ٤٠ .

٤ (أملج : قرية بها نحو مئة منزل ، بها قلعة صغيرة ، وامامها تقع جزيرة حسان التي من رملها يصنع الزجاج ، بها مزارع ونخيل ، ومنها تمتد طريق في الداخل الى اصطبل عنتر ، احدى محطات سكة حديد الحجاز) ، وهبة ١٥ ، ٢٠ .

٥ قرية وقلعة على بعد ١٥٠ ميلا الى الجنوب من العقبة ، وهبة ١٩ .

٦ الى جنوب المويلح ، المحل الرئيس لقبيلة الحويطات ، اتخذها الاتراك مركز دفاع عن الشاطىء ، وهبة ص ١٩ .

٧ Twitchell, P., 8.

تسعين قدماً ، حفرت في طبقات أرضيـــة مؤلفة من حجارة الكلس ، تتخللها طبقات من الحجارة الرملية غير أنها ليست ثخينة[1] . أما أرض (بئر حما) التي يبلغ ارتفاعها زهاء أربعة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وتقـــع على الحافات الغربية للربع الخالي ، فإنها مؤلفة من الحجارة الرملية الأيولينية الحمراء ، وعلى مسافة (٣٥) ميلاً الى الجنوب الغربي من (حما) موضع يقال له (بئر الحسينية) فيه بئر يبلغ عمقها (١٢٩) قدماً ، وقد حفرت في أرض فيها طبقات ثخينة من (الغرانيت) . وتتألف أكثر الأرضين التي تمتد من هذا الموضع الى نجران من حجارة (غرانيتية) . وتظهر الحجارة الرمليـة في القسم الجنوبي والغربي من هذه المنطقة التي ترتفع زهاء (١٥٠٠) قدم عن مستوى سطح الوادي الموصل الى نجران ، والذي يرتفع هو نفسه زهاء أربعة آلاف قدم عن سطح البحر. وتتألف مناطق واسعة من اليمن من حجارة رملية ومن الطبقات المترسبة (Sediments)[2].

قلت : إن هنالك مناطق في الحجاز مكونة من طبقات مترسبة تعد من أحسن الصخور والطبقات الأرضية ، ملائمـــة للنفط والفحم ، وإن هنالك مناطق فيها صخور بركانية ونارية ، وقد تكوّن أكثرها بعد تغييرات كبيرة وعمليات طويلة من ضغط هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تكون العمود الفقري لجزيرة العرب . وترتفع زهاء (٩٠٠٠ — ١١٠٠٠) قدم عن مستوى سطح البحر في اليمن على ما تحتها من طبقات .

ونجد مناطق واسعة من (اللابات) مبعثرة على طول هذه السلسلة ، منها ما هو حديث التكوين . ويشاهد في الزمن الحاضر لسان بارز من (اللابة) في شرقي (ابي عريش)[3] يمتد حتى يتاخم حدود اليمن، كما نشاهد مناطق أخرى مؤلفة من هذه الحجارة في مواضع عديـــدة بين (شقيق)[4] و (خور البرك)[5] مثلاً حيث تصل (اللابة) الى البحر الأحمر فتدخل فيه . وكذلك في شمالي (شقيق) عند (جهمـــة) حيث توجد بقايا بركان يكوّن جزيرة في البحر مقابل هذا

---

١ Twitchell, P., 9.

٢ Twitchell, P., 9.

٣ ابو عريش في تهامة على بعد سبعين ميلا شمالي اللحية ، وهبة ، ٤٠ .

٤ في تهامة ، وهبة ٣٨ .

٥ البـــرك ، وهبة ٣٨

الموضع[1] .

وعلى مسافة اثني عشر ميلاً من مكة جبل ، يقال له جبل النورة ، حيث تحرق حجارة الكلس المكونة له ، لاستخراج النورة واستعمالها في البناء[2] . وهذه الحجارة الكلسية هي من الطبقات المترسبة المتحولة . وهناك أماكن أخرى تكونت من هذه الحجارة ، يشاهدها المار من جدّة الى موضع (مهد الذهب) ، الذي تستغل الآن مناجمه ، لاستخراج الذهب ، وتتكون تلال مهد الذهب من الحجارة المترسبة التي تعرضت لتغيرات طبيعية عديدة ، عليها طبقات من حجارة (البازلت) (Basalt) .وفي حجارة المناجم خامات معادن متعددة، وفيها حجارة (الكوارتس) (Quartz)[3] . وتوجد في منطقة الطائف صخور (الغرانيت) ، وفي نهاية هذه السلسلة الجبلية الطويلة التي تنتهي في اليمن تشاهد (لابات) الحِرار[4] وبقايا الحرار التي كانت تزعج اليمانين ،إذ هي قـــد تقذفهم حممها في يوم من الأيام فتسومهم سوء العذاب .

وفي أرض اليمن عدد كبير من الحِرار ، ذكر السياح بعضها ، مثل حرة (أرحب) ، وتقع شمالي (صنعاء) ولها لابة استخرج منها الناس حجارة سوداً لبناء البيوت[5] . وعلى مقربة من (ذمار) تكون الأرض بركانية[6] . وتوجد الحرار في القسم الشمالي من (وادي أبرد)[7]، وفي الوادي بين (صرواح) و (مأرب)[8]. وقد حمل بعض المستشرقين وجود الحِرار في اليمن بهذه الكثرة وعلى مقربة من المدن القديمة ، على تفسير هلاك بعض المدن كخراب (مأرب)[9] و (حقة)[10] و (شبوة)[11] بتأثير هياج البراكين .

---

١ Twitchell, P., 10.
٢ Twitchell, P., 10.
٣ Twitchell, P., 10.
٤ Twitchell, P., 10.
٥ H. Scott, In the High Yemen, London, 1947, P., 8, 114. Scott, P., 113.
٦ Scott, P. 113.
٧ Philby, Sheba's Daughter's, P., 389.
٨ المصدر نفسه ص ٣٩٢
٩ كذلك ص ٣٨٩
١٠ Scott, P., 195.
١١ Philby, in Geogr. Journal, 92, PP., 127, August, 1938, Sheba's, 103.

كذلك توجد مناطق حرار في العربية الجنوبية، في عدن[1] وحضرموت وعُمان[2] وفي الربع الخالي ، وقد استعمل القدماء حجارة البراكين في البناء ، ولا يزال الناس يستعملونها في البناء حتى اليوم ، وقد وجد بين الحجارة المكتوبة عدد من صخور البراكين . وقد استغل الجاهليون بعض الحرار لاستخراج الكبريت منها، وذكر (نيبور) أن أهل اليمن كانوا يستخرجون الكبريت من جبل يقع في شرقي ذمار ، ويظهر أن هذا الجبل بركان قديم[3] .

وتتكون بعض هضاب اليمن من الصخور المتبلورة التي مرت في أدوار طويلة. ويرى العلماء أنها كانت في الأصل تحت سطح البحر ، ثم ترسبت عليها طبقات ثخينة من المواد الرسوبية حتى تبلورت وتصخرت[4] . وقد استعملها الجاهليون ولا تزال تستعمل في النوافذ،لتقوم مقام الزجاج . وهناك طبقة طباشيرية وطبقات من صخور رملية غذت المناطق المنخفضة ، وهي تهائم اليمن ، بالرمال. وكذلك المنطقة التي يقال لها الرمل[5] . وتتكون التربة في تهامة وفي سهل صنعاء من المواد الصلصالية التي تعود الى الأزمنة (الجيولوجية) ، المتأخرة ، ومن المتكونات (الأيولينية) التي حصلت بتأثير فعل الرياح في الصخور الرملية[6] . ويكثر وجود الصخور المتبلورة في الحجاز وفي العربية الجنوبية كذلك[7] . وتوجد الصخور والطبقات الرسوبية في اليمن وفي حضرموت وعمان ، وقد وجدت في هذه المناطق علائم وجود البترول .

والسواحل الشرقية لجزيرة العرب ، أي السواحل الواقعة على الخليج ، هي سهول ، ولكنها سهول من الرمال في الغالب ، ولهذا قلّت فيها الزراعة ، إلا في المواضع التي تتوافر فيها المياه الجوفية،وتتفجر عيوناً،مثل الأحساء والقطيف . وهناك سباخ ومستنقعات ناتجة من انخفاض الأرض، جوّها غير صحي .والبترول في القرن العشرين ، هو الذي أغاث أهل هذه الأرض ، وجلب لهم الثراء والمال

---

١ Stamp, P., 140.
٢ D.G. Hogarth, The Nearer East, P., 97.
٣ Scott, P., 114, 237, Niebuhr, Reisebeschreibung, S., 324.
٤ Scott, PP. 6.
٥ Handbook, Vol., 1, PP., 145.
٦ Scott, P., 8.
٧ In Unknown Arabia, PP., 421, Stamp, P., 109.

Booth, P, 477, . ممالك الشرقين الأوسط والأدنى وشعوبها في نظر الكلاسيكيين

الوافر والسيارات الفارهة وآلات التبريد ووسائل الترف والرفاهية ، وبعث فيها الحياة بعد أن كانت خامدة خاملة .

وقد كانت حال هذه السواحل قبل الإسلام أحسن بكثير من حالها في القرن التاسع عشر الى يوم استنباط البترول في القرن العشرين ، بدليـــل ما نقرؤه في الموارد التأريخية من أسماء مواضع كانت مأهولة ، زالت واندثرت ، وأسماء قبائل كانت تنزل بها ، اضطرتها أحوال قاهرة متعددة متنوعة الى هجرها ، فقلّ عدد سكانها بالتدريج .

وتعد البحرين من أكثف المناطق في جزيرة العرب . فإن نسبة عدد سكانها بالقياس الى مساحة أرضها عالية نسبياً قبـل الإسلام وفي الإسلام . وسبب ذلك هو توافر الماء فيها ، واعتمادها على استخراج اللؤلؤ من البحر وعلى صيد السمك الذي يقدم للأهلين المادة الأولى للمعيشة . والماء فيها غير عميق عن سطح الأرض وقد كون عيونـــاً في بعض الأماكن ولهذه المميزات صارت موطناً للحضر قبل الإسلام بزمن طويل .

وفي جزيرة العرب خامات معادن ، ومن الممكن استغلال بعضهـا استغلالاً اقتصادياً ، ومن هذه المعادن الذهب . وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء ومواضع عرفت بوجود خام الذهب بها ، مثل موضع (بيشة) أو (بيش) ، وقد كان الناس يجمعون التبر منه ، ويستخلصون منه الذهب[1] . و (ضنكان) ، وكان به معدن غزير من التبر[2] ، والمنطقة التي بين القنفذة و (مرسي حلج)[3] .

ويظهر من المؤلفات اليونانية ومن الكتب العربية أن المنطقة التي بـين القنفذة و (عتود) ، كانت معروفـــة بوجود التبر فيها ، فكان الناس يشتغلون هناك باستخلاص الذهب منه ، ولهـــذا رأى (موريتس) أن هذه المنطقة هي منطقة (أوفير) (Ophir) التي ورد ذكرها في التوراة على أنها كانت تصدر الذهب[4].

ويشاهد في وادي تثليث على مقربة من (حمضة) وعلى مسافة ١٨٣ ميلاً من

---

١ البلدان (٢/٣٣٣ فما بعدها) ، صفة (١٢٧ ، ٢٥٧) ، المسالك والممالك (١٨٨) فؤاد حمزة ، في بلاد عسير (٦١ فما بعدها) ، Moritz, S., 105.

٢ صفة ١٢٠ .

٣ Moritz, S., 110, Glaser, Skizze, S., 29.

٤ Hommel, Grundriss, Vol., 1, S., 13, Moritz, S., 110.

نجران آثار التبر ، ويظهر انه كان من المواضع التي استغلت قديماً لاستخراج الذهب منها[1] . وقد اشتهرت ديار بني سليم بوجود المعادن فيها[2] ، وفي جملتها معدن الذهب ، ويستغل اليوم الموضع الذي يقال له (مهد الذهب) ، ويقع الى الشمال من المدينة باستخراج الذهب منه ، وتقوم بذلك شركة تستعمل الوسائل الحديثة ، تحرّت في مواضع عديدة من الحجاز الذهب والفضة ومعادن أخرى ، فوجدت أماكن عديدة ، استغلت قديماً لاستخراج (التبر) منها،ولكنها تركتها لعدم تمكنها من الحصول على الذهب منها بصورة تجارية ، تأتيها بأرباح حسنة ، واكتفت بتوسيع عملها في (مهد الذهب) ، لأنه من أغزر تلك الأماكن بخام الذهب ، وظلت تنقب به الى أن تركت العمل فيه ، وحلت نفسها ، وتركت كل شغل لها بالتعدين[3] .

وقد ذكر الكتبة اليونان أن الذهب يستخرج في مواضع من جزيرة العرب خالصاً نقياً ، لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب الغريبة ولا يصهر لتنقيته . قالوا ولهذا قيل له (ابيرون) (Apyron) . وقد ذهب (شرنكر) الى أن العبرانيين أخذوا لفظة (أوفير) من هذه الكلمة[4] .

وقد عثرت الشركة في أثناء بحثها عن الذهب في (مهد الذهب) على أدوات استعملها الأولون قبل الإسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح ، وشاهدت آثار القوم في حفر العروق التي تكوّن الذهب، وأمثال ذلك مما يدل على أن هذا المكان كان منجماً للذهب قبل الإسلام بزمن طويل ، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب الى (سليمان) ، فأضيف الى كنوزه ، على نحو ما هو مذكور في التوراة[5] .

---

١ The Middle East, (Royal Inst. of Inter. Affairs), P., 91, (1950), Twitchell, P., 77.

٢ صفة ١١٣ ، ١٥٣ ، ومواضع اخرى

٣ (شركة التعدين السعودية العربية) ، ويشمل امتيازها كل أرض الحجاز ، وتقوم بالبحث عن جمع المعادن ، وقد بحثت في منطقة الطائف ، غير انها لم توسع أعمالها كثيرا ، تأسست سنة ١٩٣٤ م ، ثم صفت اعمالها وتوقفت عن العمل ،
(Saudi Arabian Mining Syndicate, Ltd), Twitchell, P., 146, 157, Sheba's, P., 15, The, Middle East, 1948, P., 248.

٤ Montgomery, Arabia, P., 39.

٥ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 20, 23.

ويظن بعض الباحثين أن منجم (مهد الذهب) هـو المنجم الذي كان لبني سُليم ، فعرف باسمهم وقيل له : (معدن بني سُليم) ، وقد وهبه الرسول الى بلال بن الحارث[1] .

وعرفت (أرض مدين) وما والاها من الأرضين في شمال (وادي الحمض)، بوجود التبر فيهـا . واستخراج الناس له هناك قبل الميلاد بمئات من السنين . وتوجد آثار المناجم التي كانت تستغل مبعثرة في مواضع عديدة حتى اليوم[2] .

وتوجد خامـات معادن أخرى في الحجاز منها الكبريت والنحاس والقصدير والحديد[3] ، وتستخرج الأملاح من الصخور الملحية التي في الحجـاز وفي عسير عند جيزان ، ويستخرج الأهلون منها مسحوقاً لاستعماله في عمـل المفرقعات[4] كما أن هنالك مثل هذه الصخور المحلية في السلف من اليمن . ويمكن الاستفادة من هذه الأملاح فائدة كبيرة من الوجهة الاقتصادية حيث تدخل في كثير من الصناعات.

وفي منطقة (رابغ) توجد رواسب (البارايت) (Barite) ، وتدل البحوث الأولية على أنه من الممكن استخراج عشرة آلاف طن من (البارايت) في كل عام[5] . وتدل الدلائل على أن هنالك منجماً قديماً في منطقة (رابغ) كان يستغل لاستخراج (الكالينه) (Galena) ، غير أن النماذج التي فحصت فحصاً أولياً دلت على أن هذه المادة قليلة فيها . ويظهر أن هناك كميات كبيرة من تراب الحديد في (العقيق) على مقربة من (مهد الذهب) كما شوهدت خامات المعادن في موضع (برم) جنوب الطائف[6] وفي موضع (نفى)[7]،ولا يستبعد العثور على البترول في الحجاز في المواضع المتكونة من الطبقات المترسبة (Sedimentary Formations) ، وتوجد في الحجاز الرمال التي تصلح لصنع الزجاج[8] .

وتستغل أرض الأحساء في استخراج (البترول)[9] ، ويكثر وجود البترول في

---

١ Naval, P., 517.
٢ Richard Burton, The Arabian Peninsula, P., 17.
٣ Twitchell, P., 162.
٤ Twitchell, P., 163.
٥ Twitchell, P., 164.
٦ المصدر نفسه ص ١٦٤ ، (معدن البرم) ، البلدان (٩٤/٨) .
٧ (نفى) البلدان (٣٠٨/٨) ، Twitchell, P., 164
٨ وهبـة ٢٠
٩ The Middle East, (1950), P., 90.

العروض حيث حفرت الآبار في الكويت والبحرين ، وتدل الدلائل على وجوده في قطر وعمان ، كذلك دلت التحريات على وجوده في حضرموت في منطقة (شبوة)[1] ، وفي المناطق وراء شبوة الى داخل جزيرة العرب ، حيث يحتمل العثور على مناجم للذهب كذلك[2] . ويجري البحث عن البترول في محمية (عدن) وفي اليمن .

ودلت التقارير الأولية على وجود الفحم في حضرموت في منطقة (شبوة) ، وتوجد الصخور الملحية مترسبة في بطن طبقات الأرض يقتطعها الأهلون، وتستغل في الأعمال التجارية ، كذلك توجد هذه الصخور الملحية في اليمن ، وقد تكونت بفعل العوامل (الجيولوجية) والضغط المتواصل ، فتحجرت بمرور آلاف السنين عليها ، وتكمن تحت سطح الأرض في بعض الأماكن حيث تحفر جوانب التلال للوصول الى قلب مناجم الملح المتحجرة ، وقد يفتت باستعمال المواد المتفجرة (الديناميت)[3] ، وتستخرج صخوره من بعض المناجم صافية بيضاء كأنها البلور[4] . مثل الملح المستخرج من (جبل الملح) بمأرب ، فإن ملحه كما يقال صاف كالبلور[5] . وتشتهر (السلف) بوجود مناجم ملح فيها ، تقع على مسافة أربعين ميلاً الى الشمال من الحديدة . وتوجد في جزيرة (قمران) المقابلة لهذا الموضع مناجم ملح ، وكذلك في (اللحية)[6] .

والى وجود مثل هذه الصخور الملحية في كثير من أنحاء جزيرة العرب ، يجب أن يعزى ظهور قصص بناء القصور من الملح المنتشرة في كتب التأريخ والأدب .

ولما كانت أرض اليمن وأكثر الأنحاء الأخرى من الجزيرة ، لم تفحص حتى الآن فحصاً فنياً ، ولم تطأها أقدام الخبراء ، فمن الصعب التحدث عن مواطن المعادن فيها ، وعن أنواع التربة ، وأثرها في الحضارة الجاهلية .

وقد وجدت مصنوعات حديد في اليمن ، عثر عليها في الخرائب والآثار

---

١ Sheba's, P., 103.
٢ المصدر نفسه ص ١٩٨
٣ كذلك ص ٩٩ ، ١١٤ .
٤ أيضا ، ص ١١٤ ، ١٢٧
٥ صفة ص ٢٠١
٦ Scott, P., 114, 237.

والأماكن العادية ، كما اشتهرت اليمن بسيوفها ، في الجاهلية وفي الاسلام ، غير أننا لا نعرف الآن المواطن التي كانت تستغل لاستخراج الحديد منها ، وقد ذكر الرحالة « نيبور » انه كان في « صعدة » منجم ، يستخرج منه الحديد ، وأن أماكن أخرى كانت تستغل لإنتاج هذه المادة[1] .

وذكر (الهَمْداني) من معادن اليمن الذهب والفضة ، وقال : انه كان يستخرج من (الرضواض) ولا نظير لفضته ، والحديد ، وكان يستخرج من (نقم) و (غمدان) و (فصوص البقران) ، وتستخرج من جبل أنس . و (فصوص السعوانية) وتستخرج من (وادي سعوان) جنب صنعاء ، وهو فص أسود فيه عرق أبيض ومعدنه بشهارة وعيشان من بلد حاشد الى جنب هنوم وظليمة والجمش من شرف همدان ، وحجر (العشاري) ، وهو الحجر العشاري من عشار بالقرب من صنعاء ، والبلور ، والمسنى الذي تعمل منه أنصاب السكاكين والعقيق الأحمر ، والعقيق الأصفر من الهان والجزع الموشى والمسير ، والشزب تعمل منه ألواح وصفائح وقوائم سيوف وأنصاب سكاكين ومداهن وقحفة وغير ذلك[2] . وعرفت اليمن بعقيقها الذي يقال له (عقيق يماني) و (حجر يماني) وهو (الجزع) (Onyx)[3] .

وقد بقيت بعض المواضع المذكورة تستغل معادنها في الإسلام ، إلاّ أن تغير الوضع في جزيرة العرب في الإسلام وهجرة كثير من القبائل الى البلاد المفتوحة ، ووجود صناعات فيها ومعادن أثمانها أرخص من أثمان معادن الجزيرة ، ثم تقدم العالم بعد ذلك وظهور الثورة الصناعية ، كل هذا وأمثاله أثر في وضع التعدين وفي صناعة المعادن في جزيرة العرب ، فدثرها ، أو تركها مشلولة لا تعمل إلاّ في حدود مرسومة ضيقة وفي مجال محلي .

وليست دولة الحيوان في جزيرة العرب دولة ضخمة عظيمة ، وكيف تكون ضخمة وأكثر أرض الجزيرة عدو للحيوان ولكل ذي روح ؟ والجمل هو الحيوان الأليف الوحيد الذي استطاع بعناده وبصلابته على السير بجبروت وبتبختر فوق

---

١ Scott, P., 114, 237.

٢ صفة ص ٢٠٢ فما بعدها .

٣ Scott, P. 237

رمال الصحارى ، غـــير عابىء بالرياح العاتية التي تذرو الرمال في الأعين ، وتنقل أكواماً منها معها ، تكفي لدفن الجمل ومن عليه أو من معه ومع ذلك فإن هـــذا الحيوان الصبور العنيد . لم يتوفق أيضاً في تحطيم جبروت البوادي في كل مكان ، فظلّ بعضها أرضاً حراماً عليه وعلى السابلة،تحطم من يريد التجاوز عليها والاعتداء على استقلالها ، بأن تميته عطشاً ، فتفتح ذرات رملها الناعم ، وعندئذ تغوص قوائم الجمل فيها فيبقى في مكانه حتى ينفق .

والجمل ، هو أيضاً من أقدم الحيوانات التي سمعنا بها عند العرب ، وأعزّها. وقد صوّر في النصوص الآشورية ، عند ذكر معركة (قرقر) ومعارك أخرى، وقعت بين العرب والآشوريين . وطبيعي أن يقرن الجمل بالبادية،وأن يجعل رمزاً لها،فليس لحيوان آخر القدرة على اجتياز البوادي واختراقها وتحمل مشقاتها وعطشها مثل الجمل . ثم انه مركب العرب ، يحملهم ، ويحمل تجارتهم وماءهم،وهو مونهم بالوبر لصنع البيوت حتى قيل للأعـــراب (أهل الوبر) ومنه يصنعون أكسية عديدة . ولبن الإبل ، هو لبن أهل البادية ، واذا احتاجوا الى لحم ، ذبحوا الجمل ، فأكلوه ، وأفادوا من جلده .

والجمل ثروة ، والثري العربي هو من يملك عدداً كبيراً من الإبل، وتقدر ثروته بقدر ما يملكه منها . وقد كان الجمل مقام (النقد) ، أي مقام الدينار والدرهم في الغالب ، فبعدد من الإبل يقدر مهر الفتاة ، وبعدد من الإبل تفض الديّات والخصومات . وهكذا يتعامل به كما نتعامل اليوم بالنقود .

ويرى العلماء أن الانسان ذلل الجمل حتى صيره أليفاً مطيعاً له في الألف الثانية قبل الميلاد[1] . وقد ذهب بعضهم الى أن العربية الشرقية كانت الموطن الذي ذلّل فيه هذا الحيوان في الشرق الأدنى ، استدلوا على ذلك باطلاق العراقين القدماء على الجمل اسم (حمار البحر) ، وقالوا إن قصدهم من (البحر) الخليج ، وأن لفظة (الجمل) (جملو) (كَمَلو) في (الأكادية) إنما وردت من بادية الشأم ، ومعظم سكان البادية هم من العرب ، وقد كانوا يستعملون الجمل استعمال الناس للسيارات ولوسائل الركوب في هذا الزمن . وقد استعملوه في الألف

---

١ W. F. Albright, From the Stone Age to Christianity, Baltimore, 1946, PP., 107, 120, Reinhard Waltz, Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 101, 1951, S., 29, ff., 1954, S., 47. ff., Discoveries, P. 35.

الثانية قبل الميلاد، فدخوله من البوادي الى العراق هو دليل على أن العرب كانوا قد استخدموه أولاً ومنهم انتقل الى العراق والبلاد الأخرى[1].

ويرى (البريت) أن البداوة الحقيقية على نحو ما نعرفها اليوم من السكنى في البوادي والتنقل فيها من مكان الى مكان ، لم تظهر في جزيرة العرب إلا في أواخر النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد ، وذلك بتذليل الانسان للجمل وبترويضه له لخدمة أغراضه ، ففتح له بذلك أبواب البوادي، وتمكن من التوغل فيها واجتيازها بفضل جمله خادمه المطيع . أما ما قبل الجمل، فقد كان العربي لا يستطيع اجتياز البوادي واختراقها لأن حماره الذي كان واسطة الركوب عنده، لا يتحمل ولوج البادية ، ولا يستطيع أن يعيش فيها ، وأن يصبر عن شرب الماء أو الأكل صبر الجمل ، لذلك كان عرب الجزيرة في الألف الثانية ، وقبل وقت تذليل الجمل رعاة في الغالب ، وسائط ركوبهم الحمير ، ولم يكونوا قد طرقوا البوادي أو توغلوا فيها توغل العرب أصحاب الوبر فيما بعد[2] .

فالجمل اذن هو الذي فتح لأهل جزيرة العرب آفاق البوادي ، ووسع البداوة عندهم ، حتى جعلها عالماً خاصاً يقابل عالم الحضارة في الجزيرة . وهو الذي صار أهم واسطة لنقل الأموال بالطرق البرية الطويلة التي تربط أجزاء الجزيرة بعضها ببعض، وتربط طرق الجزيرة مع الطرق الخارجية . وبفضل الجمل القادر على تحمل العطش والصبر على الجوع ، وعلى تحمل الصعاب صار في امكان العرب التنقل الى مسافات بعيدة من الجزيرة وحمل أثقاله معه . فاستخدام العرب له هو في الواقع ثورة كبيرة في ذلك العهد بالنسبة الى وسائط النقل والحمل وفي عالم التجارة والاقتصاد . ومن حق العربي اذا ما عبّر عن الغنى ان يعبر بكثرة ما عند الانسان من إبل .

وقد عرف الجمل بوجود غريزة الانتقام فيه ، وبعدم نسيانه أذى من يؤذيه، لذلك زعم أنه يبقى حاقداً على المسيء اليه حتى ينتقم منه ولو بعد زمن طويل . ويظن أن لتفسير اشتقاق اسمه دخلاً في ظهور هذه الفكرة ، فقد فسرت لفظة الجمل بأنها من فعل (كَمَلَ) (جَمَلَ) (كامل) (جامل) ، أي انتقم ، مع أنها تعني (حَمَلَ) أيضاً . وقالوا إن معنى (الجمل) (المنتقم) ،

---

١ BASOR., Num. 160, 1960, P., 42.

٢ Recoveries, P., 87.

وقالوا إنه سمي بذلك لأنه حيوان منتقم. ومن ثم وصف (أرسطو) و (أريان)، الجمل بأنه حيوان لا ينسى الأذى، سريع الانتقام. وقد يكون لأقوالهما ولأقوال غيرهما في الجمل دخل في تكوّن هذه الفكرة عنه عند الناس حتى اليوم[1].

الجمل المعروف في جزيرة العرب، هو الجمل ذو السنام الواحد. وهناك نوع من الجمال يقال للواحد منها (الهجين)، وهو الجمل المُضرب، ويكون أصغر حجماً من الجمل العربي الأصيل، إلاّ أنه أسرع عدواً منه[2]. وقد عدّ الجمل عند العبرانيين من موارد الثروة والغنى كذلك، ولذلك عدّ (أيوب) من أغنياء زمانه لأنه كان يملك ألفي جمل، وعد (المديانيون) (أهل مدين) وهم من العرب، أغنياء، لأنهم كانوا يملكون عدداً كبيراً من الجمال[3].

وللجمل في العربية أسماء كثيرة. أما في العبرانية وفي اللغات السامية الأخرى، فلا نجد فيها مثل هذه الكثرة. ويقال للجمل (كمل) و (بكرة). ويراد بـ (كمل) الجمل. أما (بكرة) فالجمل الصغير. والجمل من أقدم الحيوانات المذكورة في التوراة، وذكر أنه كان لإبراهيم عدد كبير من الجمال[4].

وبالرغم من اشتهار جزيرة العرب بجمال خيلها، وبتربيتها لأحسن الخيل، وبتصديرها لها. فإن الخيل في جزيرة العرب إنما هي من الحيوانات الهجينة الدخيلة الواردة عليها من الخارج، ولا ترتقي ايام وصولها الى الجزيرة الى ما قبل الميلاد بكثير. قيل إنها وردت اليها من العراق. ومن بلاد الشام، أو من مصر[5]، وإن وطنها الأصلي الأول هو منطقة (بحر قزوين). ولهذا لا نجد في الكتابات الآشورية، أو في (العهد القديم) أو في المؤلفات (الكلاسيكية)، اشارات الى تربية الخيل في جزيرة العرب، أو استعمال العرب لها في حلهم وترحالهم وفي حروبهم.

وقد بقي العرب الى ما بعد الميلاد، بل الى ظهور الإسلام، لا يملكون عدداً كبيراً من الخيل. وفي غزوات النبي ومعاركه مع المشركين، كان عدد الخيل التي اشتركت في المعارك محدوداً معدوداً، مع أنها كانت مهمة جداً وعدة

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٣٨).
٢ قاموس الكتاب المقدس (١/٣٣٩).
٣ القضاة، الاصحاح السابع، الاية ١٢.
٤ Hastings, 1, P., 344.
٥ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 77.

حاسمة في احراز النصر . وذلك بسبب قلتها اذ ذاك ، وعدم تمكن كل الناس من اقتنائها ، إلا من كان موسراً منهم،أو في حال حسنة . فقد كانت تكاليف الخيل كثيرة لا يتحملها إلا ذوو الدخل الحسن ، فالخيل في حاجة الى عناية ورعاية،وطعامها للمحافظة على صحتها يكلف باهظاً . فلا بد من تقديم الحشائش والحبوب لها ثم إن مجال استعمالها في البادية محدود لأنها لا تستطيع تحمل جوع الصحراء وعطشها تحمل الجمل ، كما أنها لا تستطيع السير في رمال البوادي المهلكة المتعبة مسافات بعيدة لهذا لم يقبل الأعرابي العادي على شرائها أو تربيتها في تلك الأيام ، فصارت من نصيب أهل اليسر والحال الحسنة ، يمتلكها ويعتني بها من يملك السيارات في هذه الأيام . كثرتها عند الرجل علامة على ثرائه ووجاهته بين الناس .

ونظراً لسرعة الخيل وخفتها في الكر والفر ، صارت أهم سلاح لنجاح الغزو وإلحاق الأذى بالعدو ، يغير عليها المغير فيباغت خصمه بهجوم سريع خاطف ، فربكه ، ولهذا أخذت القبائل ، ولا سيما القبائل الساكنة في مضارب قريبة من الأرياف ومن الحضر ، تشتري الخيل وتعتني بها للمحافظة على حياتها في الدفاع والهجوم . وعدّت القبائل القوية ، هي التي تملك عدداً كبيراً من الخيل ، وصار للفارس مقام خطير في ذلك الزمن ، لشجاعته وصبره في الدفاع عن مواطنيه ، فهو بمثابة (الكومندو) في هذه الأيام[1] .

واستعملت الخيل للتسلية واللهو واللعب ، فتسابق على ظهورها الفرسان في حلبات السباق ، وتراهن الناس على السابق ، ولعب الفرسان بعض الألعاب : ألعاب الفروسية وخرجوا على ظهورها للصيد ، فالصياد الراكب،أقدر من الصياد الراجل على مطاردة الصيد .

وفي القرآن ذكر للخيل كمصدر من مصادر القوة ، يرهب بها المسلمون أعداءهم ومصدر من مصادر الثروة ، ومصدر من مصادر الزينة وبهجة الحياة الدنيا[2] . وفي الحديث ذكر لها كذلك وثناء عليها. وعُدّت الخيول من الحيوانات

---

١ قاموس الكتاب المقدس (١/١٥٥ وما بعدها) .

٢ آل عمران ، الاية ١٤ ، الانفال ، الاية ٦٠ ، النحل ، الاية ٨ ، الحشر ، اية ٦ اسراء ، اية٦٤ .

الشريفة الرفيعة في التوراة[1] ، وصورت على شكل خيول من نار فيها، تهبط على أعداء الرب لتنزل بهم الهلاك والدمار[2] .

أما البغال ، فإنها من الحيوانات المعروفة بتحملها للمشقات ، وقدرتها على السير في المناطق الوعرة ، مثل الهضاب والأرضين المتموجة والجبال . وقد استعملت في الحمل وفي الركوب ،وهي تؤدي خدمات في هذه المناطق يعسر على الجمل القيام بها ، وقد يعجز عنها . أما هي ، فإن من الصعب عليها العمل في البوادي ذات الرمال ، كما أنها لا تستطيع الصبر صبر الجمل على تحمل الجوع والعطش أياماً متوالية عديدة ، لذلك لم يقبل عليها أهل البادية ، ولم يعتنوا بها .

وقد حرم قدماء العبرانيين على أنفسهم تربية البغال ، وأول من أباح ذلك وجوز لهم استعمالها هو (داوود) ، ومنذ ذلك الحين ،أقبلوا على تربيتها والاستفادة منها في أرض فلسطين[3] . ويظهر ان قدماء العبرانيين لم يكونوا يعرفون البغال ، فلما وجدوها عند أمم وثنية غريبة عنهم ، كرهوا استعمالها فحرموها على أنفسهم ، حتى انتبه (داوود) لفائدتها ومنافعها ، فاستعملها ، ثم قلده في ذلك بقية العبرانيين بالتدريج .

ويظهر أن البغال لم تكن كثيرة الاستعمال في جزيرة العرب حتى ظهور الإسلام. فقد ورد في كتب السير ان (دلدلاً) ، بغلة النبي ، (أول بغلة رئيت في الإسلام أهداها له المقوقس ،وأهدى معها حماراً يقال له عُفير)[4] . وورد أيضاً : (أهدي لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بغلة شهباء فهي أول شهباء كانت في الإسلام)[5] . وورد : (أهدى فروة بن عمرو الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بغلة يقال لها فضة)[6] .

---

١ ايوب ،٣٩ اية ١٩ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١٥٥/٢) .

٢ الملوك الثاني ، الاصحاح الثاني ، الاية ١١ ، قاموس الكتاب المقدس (١٥٦/٢) .

٣ اللاويون ١٩ ، ١٩ ، صموئيل ، ١٣ ، ٢٩ ، ١٨ ، ٩ ، الملوك الاول ، ٣٢١ ، ١٠ ، ٢٥ ، ١٨ ، ٥ ، Hastings, P., 637.

٤ ابن سعد الطبقات (٤٩١/١) (طبعة دار صادر) .

٥ المصدر نفسه

٦ كذلك .

وورد في القرآن الكريم : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... »[1]، مما يدل على أن من الناس من استعمل البغال للركوب وللزينة . وقد كان من الأشراف والوجهاء من يتخذ البغال للركوب في الطـرق الوعرة . أما من هم دونهم في المنزلة ، فكانوا يتخذون الحمير .

وقد ورد في شعر لـ (بشر بن أبي خازم الأسدي) ما يفيـد أن البغال كانت معروفة في بعض المواضع ، وأن أبوالها كانت تترك وقيعاً أي أثراً على الأرض[2] . والظاهر أنه قصد بعض الأرضين الوعرة التي كان من الصعب على غير البغال السير بها ، وذلك مثل بلاد اليمن التي كانت تستعمل البغال للركوب ولرفع الأثقال .

والحمير هي أول واسطة للركوب وللحمل عند الحضر وأهمها ، هي للحضري مثل الجمال للبدوي ، وهي مركب مريح لا يسبب ازعاجاً ، ولا سيما اذا كان أتاناً ، لأنها أهدأ وآمَنُ من العثار . هذا ، الى أنها صبورٌ تتحمل المشقات ، ولعلّ صبرها وتحملها وسكوتها عند ضربها ، قد حمل كـل الناس على وسمها بالبلادة . فشبّه البليد بالحمار ، فإذا أريد تعبير شخص بالبلادة وعدم الفهم قيل إنه (حمار) . ليس ذلك عند العرب وحدهم ، بـل عند غيرهم من الشعوب القريبة منهم مثل العبرانيين،والبعيدة عنهم . فشهرة الحمار بالبلادة شهرة عالمية[3] . ويقال للحمار (حامور) (Hamor) في العبرانية . أما الأنثى ، فإنها (أتون) (Athon) أي (أتان) في العربية . وأما الحـمار الصغير ، وهو ما يقال له (الكر) أو (الجحش) ، فإنه (عير) (Ayir) في العبرانية[4] .

ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين أن الحمار في جزيرة العرب هو أقدم عهداً من الجمل ومن الخيل والبغال ، اذ كان واسطة الركوب والنقل في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد . فلما حل الجمل محله خفف من واجباته وأعماله ، وصار عند العرب في منزلة هي دون منزلة الجمل بكثير .

---

١ النحل ، الاية ٨ .

٢ وقد جاوزن من غمدان أرضا لابـوال البغال بهـا وقيـع
وفي بعض الكتب (عيـدان) في مكان (غمدان) ديوان بشر (ص ١٣٢) .

٣ Hastings, P., 59.

٤ Hastings, P., 59.

والبقر من الحيوانات القديمة في بلاد العرب ، وهي من الحيوانات الملازمة لأهل الحضر في الغالب،ولا سيا لأهل الريف ، أما الأعراب فإن استفادتهم منها غير ممكنة وتكاليفها كثيرة بالنسبة اليهم ، ثم إنها لا تستطيع تحمل طبيعة البادية، لذلك لم يقبلوا عليها ، ولم يعتنوا بتربيتها ، بل ربما نظروا إلى أصحابها نظرة ازدراء وعدم احترام . ويستفاد من ألبانها ومن لحومها وجلودها ، كما يستفاد منها في حرث الأرض ، وفي سحب الماء من الآبار ، وفي جر العربات . وقد عثر على ألواح مكتوبة بالمسند وعليها صور ثيران تقوم بحراثة التربة لتهيئتها للزرع .

والأغنام ، هي المادة الرئيسية لتموين الناس باللحوم والصوف . تربى في كل أنحاء جزيرة العرب ، ويستفاد من ألبانها كذلك . أما (المعز) فيربى في المناطق المتموجة ، أي ذات التلال ، وفي الأرضين الجبلية بصورة خاصة . ويستفاد منها مادة للحوم وللحليب وللجلود ، ويستعمل شعرها للخيام السود المصنوعة من شعرها في تلك الأزمنة[1] . ولكن هذه الأنواع من الماشية،لا تستطيع العيش في البادية ، لذلك كانت من نصيب أهل المدن وحدهم . أما أهل الوبر الضاربون في البادية فإن ماشيتهم الوحيدة الإبل .

وعرفت جزيرة العرب الأسد ، الذي قلّ وجوده فيها في الإسلام ، ويظهر من كثرة أسمائه في اللغة ومن ورود اسمه في الشعر الجاهلي ، أنه كان كثيراً فيها ، وقد اشتهرت أماكن خاصة منها بكثرة أسودها حتى قيل لها (مآسد) والواحدة (مأسدة) . ومن هذه الأماكن (عثّر) ، واليها نسبت (أسود عثّر) ، و (عتود) وهي قرية نسبت اليها الأسود كذلك[2] . وقد عرف الأسد بشدة بطشه وبقوته وبسيادته على سائر مملكة الحيوان في القوة،ولهذا لقبوا الشجاع الذي لا يقهر أسداً .

أما بقية الحيوانات المعروفة باسم الحيوانات الوحشية ، أي التي لم تألف الانسان ، فمنها النمر[3] والفهد والثعلب والذئب والقط الوحشي والضبع والبقر

---

١ Hastings, P., 906.

٢ المخصص (٨/٥٩ فما بعدها) ، صفة (٥٤) ، Moritz, S, 40., f., Noldeke, in, Zdmg, 49, 713, f.

٣ صفة (٢٠٢) .

الوحشي[1] ، أو الرئم والحمار الوحشي ، وقد كان الجاهليون يصطادونه ويأكلونه عند الحاجة ، حتى حرمه الإسلام ، والنعامة[2] والغزال والضبّ ، وله ذنب معقد ، ويأكله الأعراب . والورل والوزغ ، واليربوع ، والقنفد . ولا تزال مواضع من اليمن والحجاز وحضرموت تحتضن قردة تتيه وحدها على الجبال والمرتفعات ، فخورة بأنها من نسل تلك القرود التي عاشت قبل الإسلام بأمد طويل .

وعرف العقاب والبازي والنسر والصقر والبوم من بين الكواسر التي تنقض على الطيور الضعيفة والهوام فتعيش عليها ، والغراب بأنواعه معروف في جزيرة العرب وله قصص في الأساطير العربية ، ولهذا الطائر قصص في الآداب الأعجمية كذلك ، لها علاقة كما هي عند العرب بالتفاؤل والتشاؤم بصورة خاصة وكان من الحيوانات التي تركت أثراً في أساطير الشعوب القديمة وما برح الناس يتطيرون من نعيبه .

والهدهد المذكور في القرآن الكريم ، من الطيور الجميلة المحبوبة ، وهناك أنواع عديدة من الحمام والعصافير والقطط والعنادل ، وغيرها من الطيور الجميلة ولبعضها أصوات جميلة أخاذة ساحرة ، كما أن لبعضها ألواناً زاهية .

والجراد ، وان كان طعاماً شهياً لكثير من البدو ، بلاء على أهل الحضر يأكل زرعهم ويأتي على ما غرسوه فتحل بهم المجاعة ، ويزيد في قساوة الطبيعة على الانسان . ولذلك عد نقمة توجهها الآلهة على البشر ، وتعبيراً عن الغضب الإلهي على الخارجين على طاعة الآلهة ، ولما كان يحدثه من أضرار بالزرع والأثمار والأشجار[3] .

والعقارب ذات أحجام وألوان ، وهي تلدغ من تصيبه فتؤذيه وتؤلمه إيلاماً شديداً ، وهي مثال الحقد واللؤم عند العرب ، فيضرب المثل بطبيعتها ، على عكس الأفاعي والحيّات ، مع أنها مؤذية كذلك ، وقد تميت من تلدغه . والسبب في ذلك أنها أكبر حجماً من العقرب ، وفي استطاعة الإنسان رؤيتها وتجنبها ، ثم إنها لا تقدم على الانسان ولا تلدغه إلا إذا شعرت أنها في وضع

---

١ Moritz, S, 42, Wellhausen, lieder der Hudhailiten, no., 175, 176.

٢ Euting, 1, 230, Moritz, S, 42.

٣ الخروج ، الاصحاح العاشر ، الاية ٤ وما بعدها ، مزامير ، المزمور ٧٨ ، الاية ٤٦ ، ١٠٥ ، الاية ٣٤ ، قاموس الكتاب المقدس (٣٢٢/١) .

حرج مخيف بالنسبة اليها . ولهذا ورد في الأمثال : « نحو العقرب لا تقرب ، نحو الحية افرش ونم » ،وزعم أن العقرب عمياء مع أنها ترى مثل سائر الحيوانات. ولكن صغر حجمها ولونها الذي يقرب من لون التراب ، وكثرة وجودهـا في البيوت ، هي عوامل تجعل الانسان لا يميزها بسهولة ، ولا يشعر بها إلاّ وقدمه عندها أو فوقها ، فتلدغه عندئذ دفاعاً عن نفسها ، كما يفعل أي حيوان آخر باستعمال ما عنده من وسائل الدفاع عن النفس .

وقد تركت الأفاعي والحيّات أثراً كبيراً في القصص العربي.ولما كان بعضها كبير الحجم ، يقفز على من يهاجمه بسرعة خاطفة ، أفزع النـاس في البوادي والأودية ، وترك في مخيلاتهم آثاراً باقية لا تنسى . جعلهم يربطون بين الحيات والأفاعي والعفاريت ، وبين الجن « الجان » ، بأن جعلت فصائل منها .

وتعيش في الرمال وفي الغابات وبين الصخور ، فصائل من الحيّات مختلفـة الأحجام ، بعضها صغير ، يقفز قفز بعض السمك فوق سطح البحر ، أو الهوام وبعض الحشرات فوق سطـح الأرض . فلا يشعر المار إلاّ وأمامه حية قافزة تفزعه وترعبه . وقد طار صيتها وانتشر خبرها خارج حدود جزيرة العرب ، فوصفت بلاد العرب بكثرة الحيات الطائرة ، حتى زعم أن لبعضهـا أجنحة ، وأنها ذات ألوان متعددة ، وكوّن وجودها قصصاً في مخيلة الآشوريين واليونان والرومان ، نرى أثره فيما ذكره « هيرودتس » و « سترابو » عن تلك الحيات[1] .

وقد فزع جيش (أسرحدون) في أثناء اختراقه البادية من كثرة الثعابـين والحيات التي كانت تثـور عليهم وتقفز أمامهم كما يقول نص « أسرحدون » . وذكر أن من بينها ثعابين ذات رأسين ، وأن من بينها ما له جنـاح فيطير . ولما مرّ الجيش بأرض (بوزو) (بازو) (Bozu) (Bazu) ، وجد الأرض مغطاة بالثعابين والعقارب ، وهي في كثرتها مثل الذباب والبعوض[2] . والظـاهر أن البوادي كانت منازل طيبة للثعابين . وقد تذمر الاسرائيليـون من « الثعابين الطائرة » وفزعوا منهـا عندما كانوا يقطعون البوادي والفيافي في طريقهم الى

---

١ Herodotus, III, 107, 113, Strabo, XVI, 4, 19, 25.

٢ Rogers, Cuneiform parallels to the Old Testament, P., 359, Luckenbill, II, 209, 229, Montgomery, Arabia and the Bible, PP. 8.

فلسطين[1] . وقد أفزعت السياح المحدثين والمستشرقين ، ومنهم « لورنس » الذي هاله ما رأى من كثرة الثعابين في الأماكن التي نزل بها وفي جملتها « وادي السرحان[2] » .

والسمك هو من أهم موادّ العيش لسكان سواحل الجزيرة ، يعيشون عليه ويبيعونه لحماً جافاً ويصدرونه الى الأماكن البعيدة ويحملون الطري منه الى الأماكن التي لا تبعد كثيراً عن الساحل . ويجفف ويدق ليكون طعاماً عند الحاجة اليه ، كما يكون طعاماً لحيواناتهم كذلك . ولا يزال سكان السواحل يصيدون السمك بالطرق التي تعوّد أهل الجاهلية استعمالها في السمك . ويأتي سمك (السردين) أي السمك الصغير في مواسم الشتاء الى السواحل بكثرة ، فيصاد بسهولة وتغذى به الحيوانات . وطالما تنبعث الروائح الكريهة ويتراكم الذباب بدرجة منفرة من تكدس الأسماك المعرضة للشمس لتجفيفها ، فتكون من شر الأماكن لمن لم يتعود دخولها .

ومن أنواع السمك الكبير الذي يوجد في البحر الأحمر وفي البحر العربي والخليج ، نوع يقال له (القرش) ، يحتاج صيده الى مهارة وبراعة ، ويحمل لبيع لحمه مقطعاً في الأسواق .

وقد اشتهرت اليمن والطائف في الحجاز ومواضع أهل الحضر الأخرى بدباغة الجلود ومعالجتها لتحويلها الى مادة نافعة لصنع الأحذية أو الدلاء أو القُرَب وما شابه ذلك . وقد تصدّر الجلود مدبوغة أو غير مدبوغة ، الى العراق أو إلى بلاد الشام لبيعها هناك .

وليست لدينا في الزمن الحاضر دراسات علمية دقيقة عن أنواع الحيوانات التي عاشت في جزيرة العرب في العصور السحيقة لما قبل الإسلام . فما عثر عليه من بقايا عظام قديم ، أو أصداف ومحّار ، هو قليل لا يكفي لاعطاء أحكام علمية عن حيوانات جزيرة العرب في العصور البرنزية والحديدية والحجرية ، أو ما قبل هذه العصور التأريخية . فليس لنا الا الانتظار ، حتى تأتي الفرص الملائمة التي يقوم فيها العلماء المتخصصون بالتجوال في مختلف المناطق بحثاً عن آثار عظام

---

١ العدد ٢١ الاية ٢٤ وما بعدها ، اشعياء ، ٣٠ ، الاية ٦ .

٢ Colonel Lawrence, Revolt in the Desert, P., 93, G. Jacob, Studien in Arab. Dichtern, Heft, 1, S., 93, Heft, 4, S., 10, Montgomery P. 9.

وهياكل ، تكشف القناع عن ذلك العالم الحي ، الذي عاش في هذه البقاع قبل آلاف السنين .

واذا كان الجمل ، هو رمز جزيرة العرب ، لالتصاقه بها ، فإن النخيل هي رمز آخر لها ، وكناية عن أهم حاصل ومنتوج زراعي تصدره تلك البلاد، ولهذا صارت رمزاً لها . وصار (التمر) ، عند كثير من المسلمين من أهم ما يتناولونه في شهر رمضان ، للافطار به ، لأنه رمز الإسلام ورمز المدينة التي عاش وتوفي فيها الرسول .

وكما أفاد الجمل أهله الفوائد المذكورة المعلومة ، من ناحية حمله ولحمه وجلده ووبره ، كذلك أفادت النخلة سكان جزيرة العرب فوائد عديدة ، حية وميتة ، أفادتهم في تقديم ثمرة صارت إداماً للعرب ، وطبّاً يستطبون بها لمعالجة عدد من الأمراض . ومادة استخرجوا منها دبساً وخمراً وشراباً ، وأفادهم كل جزء من أجزائها ، حتى أنهم لم يتركوا شيئاً من النخلة يذهب عبثاً . فهي اذن رمز الخير والبركة بكل جدارة وحق لأهل جزيرة العرب ، لا يدانيها في ذلك أي نوع من أنواع النباتات النامية في هذه البلاد .

وكائن له هذه الفوائد والمنفعة ، ينمو ويثمر بسهولة ويسر ، لا بد أن يثمن ويقدر ، ويميز على غيره . ولهذا صارت النخلة سيدة الشجر ، لا عند العرب وحدهم بل عند قدماء الساميين أيضاً ، وأحيطت عندهم بهالة من التقديس والتعظيم[1]. وزخرفت معابدهم بصورها واستعمل سعفها الأخضر في استقبال الأعياد والأبطال والملوك وكبار الضيوف ، لأنه علامة اليُمن والبركة والسعادة والفرح . ولا يزال السعف زينة تزين بها الشوارع في المناسبات العامة المهمة حتى اليوم . وقد عثر على صورها وصور سعفها على النقود القديمة وفي جملتها نقود العبرانيين الذين يحترمون النخلة احتراماً لا يقل عن احترام العرب لها ، ولهذا ورد ذكرها في مواضع عديدة من التوراة والتلمود[2] .

والنخيل ، هي مثل الجمال ثروة ورأس مال يدر على صاحبه ربحاً وافراً . ومن كان له نخل وافر كان غنياً ثرياً . وقد ربح يهود الحجاز أرباحاً طائلة من

---

١ Hastings, P., 675.

٢ اللاويون ، ٢٣ ، ٤٠ ، نحميا ، ٨، ١٥ ، المكابيون الاول ، ١٣ ، ٥١ ، Hastings, P., 675.

اشتغالهم بزراعة النخيل هناك . فالتمر هو مادة ضرورية للأعرابي يعيش عليها ويأتدم بها ، واذ هو لم يكن يفلح ولا يزرع ، كان يشتريه مقايضة في الغالب من تجار التمور ، فيكسب أصحاب النخيل أرباحاً طائلة من بيعهم التمور . ولا يوجد مكان في جزيرة العرب فيه ماء ، إلا والنخلة هي سيدة المزروعات فيه ، بل تكاد تكون النبات المتفرد بالزرع في أكثر تلك الأمكنة . لا يزاحمها نبات آخر من النبات .

والنخلة هي من أقدم الأشجار التي احتضنها الساميون ، ولعل الفوائد التي حصل الساميون عليها من هذه الشجرة ، هي التي حملتهم على تقديسها وعدّها من الأشجار المقدسة ، فنجد النخلة مقدسة عند قدماء الساميين وعدّوا ثمرها وهو التمر من الثمار المقدسة التي تنفع الناس[1] .

أما الكروم ، فقد غرست في مناطق من الجزيرة اشتهرت وعرفت بها مثل الطائف واليمن . وأما الأشجار المثمرة الأخرى مثل الرمان والتفاح والمشمش وأمثالها ، فقد غرست في مناطق عرفت بالخصب ، وبتوافر الماء فيها ، ويميل أهلها الى الزراعة والاستقرار ، مثل مدينة (الطائف) مصيف أهل مكة منذ الجاهلية ، واليمن . وقد ذكر أن الكروم دخلت الى بعض المناطق حديثاً، فورد أنها دخلت الى (مسقط) مثلاً في القرن السادس عشر للميلاد ، على أيدي البرتغاليين[2] ، ودخلت الى الحجاز في القرن الرابع بعد الميلاد غريبة من بلاد الشام . ويرى بعض الباحثين أن النبط واليهود كانوا الوسطاء في نقل الأشجار المثمرة الى الحجاز[3] .

أما أشجار ضخمة تمد الناس بالخشب على نحو ما نجده في الهند أو في إفريقية، فلجفاف الجزيرة لا نجد فيها مثل تلك الأشجار . لذلك استورد العرب خشب سفنهم ومعابدهم وبيوتهم من الخارج في الغالب ، من إفريقية ومن الهند ، خلا الأمكنة القريبة من الجبال والمرتفعات التي يصيبها المطر ، وتصطدم بها الرطوبة، فقد نبتت فيها أشجار كونت غابات وأيكات ، أفادت من في جوارها ، إذ

---

١ Hastings, P., 675.

٢ جان جاك بيربي ، جزيرة العرب (٢٠٥) ، وفي هذه الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٩٦٠ ببيروت ، اغلاط كثيرة في ضبط الاعلام .

٣ حتى (٢٢) .

أمدتهم بما احتاجوا اليه من خشب لاستعماله في مختلف الأغراض . وقد كانت منطقة (حسمى) وأعالي الحجاز ذات غابات ، وقد تعبّد أهلها لإلـه اسمه (ذو غابة) ، إلـه الغابات ، كما كست الأحراج الطبيعية والغابات جبال اليمن وجبال حضرموت وعمان .

وما زال أهل العروض ولا سيما سكان الخط ، يستوردون أخشاب سفنهم من الهند ، لعدم وجود الخشب الصالح لبناء السفن عندهم أو في أماكن قريبة منهم . وهم في ذلك على سنة أجدادهم الذين عاشوا قبل الإسلام بل قبل الميلاد، يذهبون بسفنهم الشراعية الى سواحل الهند وسيلان تحمل اليها التمور وحاصلات جزيرة العرب والعراق وتعود بهم محملة بحاصلات الهند ومنها الخشب الثمين للاستفادة منه في بناء السفن ولاستعماله في المعابد الضخمة المهمة وفي قصور الملوك .

والسدر من الأشجار المعروفة في جزيرة العرب ، وترتفع شجرته أمتاراً عن سطح الأرض،وتكوّن ظلاً يقي من يجلس تحته لهيب الشمس ووهجها المحرق . وتكون له ساق قوية متينة . وهو لا يحتاج الى سقي دائم ، لأن جذوره تمتد عميقة في باطن الأرض ، فتمتص الرطوبة ، ويعطي ثمراً هو (النبق) ، ويستعمل ورقه استعمال الصابون في تنظيف الجسم .

وأشجار مثل السدر ذات ارتفاع وظل ، وهي أشجار ذات نفع كبير لأهل البلاد التي تغلب عليها طبيعة الجفاف ، لا يمكن أن يقدر أهميتها وفائدتها الا من ركب الصحراء في يوم حار ، ثم جاء فجأة فجلس تحت ظل شجرة تقيه وتقي حيوانه من لهب الشمس ، سيرى نفسه في جنة وسط جهنم . فلا عجب اذا ما عبد بعض العرب وبعض الساميين مثل هذه الأشجار ، وتقربوا اليها بالنذور والقرابين ، وتوسلوا اليها ، أو عدّوها من الأشجار المقدسة ، من الأشجار المباركة ، من أشجار طوبى ، الأشجار التي وعد بها المتقون في الجنة .

وقد عبد قدماء العبرانيين بعض الأشجار المثمرة ، وعدّوها إلاهة أنثى ، لا إلهاً ذكراً ، وذلك لخاصية الحمل التي فيها ، وقد تصوروا أن للقمر أثراً في حمل تلك الأشجار ، أي في اعطاء الثمرة[1] .

---

1 A Religious Encyclopaedia, or Dictionary of Biblical, Historical, Dactrinal, and Practical, Theology, by Philip Schaff, Vol., 2, P., 916.

وقد ذكرت أسماء بعض الفواكه والأثمار والأشجار في القرآن الكريم ، ويدل ذلك على وجودها في الحجاز ، واستعمال الناس لها ، ووقوفهم عليها، مثل التين والزيتون والأعناب والطلح والسدر والرمان وعلى وجودها وزرعها في الحجاز ، قبل الإسلام بأمد . ولم يكن الحجاز مثل اليمن وحضرموت في كثرة الأشجار والفواكه ، وذلك لجفافه بالقياس الى جو العربية الجنوبية الذي ساعد على نموّ الأشجار .

والأثل والأراك والغضى الذي يستخرج منه الفحم ، والمعروف بجمره ، و (السنط) ، والسمح ، و (الصعتر) ، وأمثالها ، هي من الأشجار التي لا تزال تنمو وتعيش في مواضع متعددة من الجزيرة، وبعضها في الأقسام الغربية والجنوبية حيث تنمو وتنبت على المرتفعات ، يستخرج منها الناس وقوداً ، أو ثمراً برياً يأكلونه ، وقد يستفيدون من ورقه فيجففونه ويسحقونه فيبيعونه .

وأما الحبوب والخضر والبقول ، فتحتاج كلها الى سقي ، لهذا انحصرت زراعتها في الأماكن التي تتوافر فيها المياه أو تتساقط عليها الأمطار في المواسم المناسبة . لذلك نجدها في الحجاز وفي اليمن وفي العربية الجنوبية وفي مواضع المياه من نجد والعروض . والحبوب هي الحنطة والشعير والذرة والأرز،وسأتحدث عنها وعن بقيتها في باب الزراعة عند الجاهليين . وبعض الخضر ، مستورد من الخارج ، أدخل من العراق أو من بلاد الشام أو من إفريقية والهند ، فالبطيخ مثلاً المعروف بـ (الخربز) عند أهل المدينة مستورد كما يدل عليه اسمه الفارسي من العراق : استورد قبل الإسلام بأمد . ويمكن الاستدلال من أسماء الأثمار والخضر ، ومن دراسة توزيعها وأماكن وجودها،على الأماكن التي جاءت منها ، فدخلت جزيرة العرب قبل الإسلام .

أما (البخور) واللبان — يترول العالم في ذلك الزمان — والصموغ والمرّ والمنتوجات الزراعية الأخرى التي اشتهرت بها العربية الجنوبية ، وكانت مصدر رخائها ، ومصدر تنافس الدول الكبرى عليها في ذلك الزمان ، فقد زالت أهميتها بالتدريج ، وذهب أثر سحرها بتبدل الأيام . و (ظفار) والمناطق الأخرى ، وان كانت لا تزال ترى أشجار البخور تنبت على الفطرة حتى اليوم ، قد زالت دولتها الآن ، فلا تأتي للسكان بالذهب والفضة ، فقد تغير ذوق العالم، وتبدلت تجارته ، وصار يفتش عن الذهب الأسود ، منتوج الطبيعة في باطن الأرض .

وفي هذه المواضع من العربية الجنوبية وفي الأودية وحافات الهضاب والجبال التي كانت تنبت بها تلك المواد الثمينة ، والتي لا تزال تنبت على الطبيعة، تشاهد كهوف ومغاور غريبة وآبار وكتابات جاهلية بالمسند ، وآثار مقابر تتحدث كلها عن قوم كانوا قد استوطنوا هذه الأماكن قبل الإسلام بزمان طويل[1] . أما الآن، فهي خرائب ، ترجو من الأحياء توجيه نظرهم اليها لإحيائها ولاستنطاق آثارها وكنوزها لتحدثهم عن ماضيها القديم .

وقد حبت الطبيعة اليمن بمزية جعلتها تحتضن كل النباتات المذكورة ، وتنبت أكثر أنواع المزروعات ، وذلك بانعامها عليها بجبال وبمرتفعات وبمنخفضات حارة رطبة ، هيأت لها ثلاثة جواء ، تنتج محصولات ثلاثة أنواع من المناخ : منتوج المناخ المرتفع البارد ، ومنتوج المناطق المعتدلة ، ومنتوج المناطق الحارة .

وقد عرف أهل اليمن الأذكياء كيف يستغلون تربتهم ، فعملوا مدارج على سفوح جبالهم وعلى المرتفعات ، أصلحوا تربتها ، وذلك لحصر مياه المطر عند نزوله ، ضماناً لدخوله التربة وإروائها ، وزرعوا تلك المدارج أو السلالم العريضة بمختلف المزروعات وذلك قبل الإسلام بأمد طويل ، فأمنوا بذلك خيراً وافراً لهم، جعل اليمن من أسعد بلاد جزيرة العرب ، فهي العربية السعيدة والعربية الخضراء بكل جدارة ، وهي موطن الحضارة وأرقى مكان نعرفه في الجزيرة في أيام ما قبل الإسلام .

ومن النبات ما هو دخيل استورد من الخارج،من العراق أو من بلاد الشام ، وقد احتفظ قسم منه باسمه الأعجمي القديم . ويظهر أن بعضه قد دخل بعد الميلاد . وقد يكون من المفيد دراسة نبات جزيرة العرب قبل الإسلام ، لمعرفة الدخيل منه وكيفية وصوله الى الجزيرة ، كما يستحسن دراسة الكتابات الجاهلية لاستخراج ما ورد فيها من أسماء النبات .

وأما البوادي فإن ظروف الخصب والماء فيها محدودة ، تركزت في مواضع المياه وفي الأماكن الرطبة التي تكون المياه الجوفية فيها على حافة القشرة ، وفي أعقاب الأمطار ، حيث تخضر الأرض وتلبس حلة خضراء سندسية جميلة، لكن لبسها لا يدوم طويلاً ، فسرعان ما تمزقها الرياح الجافة والأهوية الحارة،فتقضي

---

١ Sanger, The Arabian Peninsula, P., 126.

عليها وتظهر حقيقة ما تحتها من تربة جافة عبوس،لا مكان للنبات فيها ولا مجال لزرع فيها في مثل هذه الظروف .

والواحات ومواضع الآبار والمياه في البوادي ، هي رحمة للانسان حقاً، ومنظر تقرّ به العين . فالواحة في البادية ، لؤلؤة وكنز وجنة وسط جحيم ، لا يدرك جمالها ولا يعرف قدرها إلا من اضطر إلى ركوب البوادي وتعرض لرياح السموم ووهج الشمس وعواصف الرمال تستقبل الأوجه بذرات الرمل الناعمة ، تهاجم العيون والأنوف والأفواه،وتضطر حتى الجمل الى البطء في سيره والى التوقف ، ثم تأتي على ما لدى الإنسان من ماء حرص على حمل أكبر كمية يستطيع حملها للوصول الى مكانه المقصود لضمان حياته في هذه البادية وحياة حيوانه الذي هو فيها جزء من حياته أيضاً . ولولا الآبار والواحات في هذه البوادي ، لما كان من الممكن طرقها وسلوكها ، وإلا كان الدمار والهلاك .

وفي هذه المواضع التي حبتها الطبيعة بـ (إكسير الحياة) يستعيد المسافر نشاطه ويتجدد أمله ، ويسترد قواه ، يعطيه ماؤها قوة تعيد اليه كبرياءه وعظمته وجبروته ، ثم تنسيه كل ما تعرض له من مصاعب ومشقات ، وما أبداه من عجز وضعف تجاه القوى الخفية القادرة المهيمنة على الصحراء . وعندئذ يتذكر حكمة : « وجعلنا من الماء كل شيء حي »[1] . ويشعر ببحر الماء والخضراء ، يسحر هذه الأشجار والشجيرات والأعشاب النامية في هذه التربة بفضل (إكسير الحياة) . ومهما كان الانسان في هذا المكان من السذاجة والبلادة والجهل ، فلا بد أن يستولي عليه شعور من حيث لا يشعر بعظمة سحر هذا المكان .

أما الغرباء الذين يعجبون من تقاتل العرب فيما بينهم على موضع صغير فيه بئر أو بركة ماء أو عشب ، فإنهم سيدركون سر هذا التقاتل في حياة أهل البادية لو كلفوا أنفسهم يوماً اجتياز تلك البوادي الواسعة العابسة . عندئذ فقط، يدركون أن ذلك القتال الذي وسم أهل الباديه بسمة حب الغزو والغارات لم يكن سببه فردية وأنانية ، وإنما غريزة انسانية تنبت في كل انسان متى عاش في هذه الظروف القاسية العابسة الفقيرة . إنها غريزة المحافظة على الحياة .

ولا غرابة بعدُ اذا ما تغنى العربي بمواضع المياه والبادية بعد نزول الغيث

---

١ الانبيـاء ، الاية ٣٠ .

عليها ، واذا ما أظهر الحنين اليها ، وتوجع في شعره وفي غنائه على الليـــالي المقمرة يقضيها في باديته يناجي سمـــاءه الصافية ونور قمره الساطع يغازله ويوحي اليه ، ويرسل اليه النسمات العليلة ، والى جانبه حبيبته . يذكر حسه هذا في شعره وفي غنائه وفي موسيقاه ، حتى ليبدو للغريب ، وكأن ما يقوله العربي ويحس به نغمة واحدة ساذجة مكررة تعاد وتعاد من غير معنى ولا سبب . ولكن حسه هذا حس الصحراء ، وليس في الصحراء غير نغم واحد ، تترنم به الطبيعة ، فإما هدوء شامل ، وإما نسمة واحدة عليلة مستمرة ، وإما عواصف رملية ، اذا هدأت عاد الى الصحراء هدوؤها المعهود .

ومناخ جزيرة العرب — على العموم — حار شديد الحـرارة ، جاف ، إلا على السواحل ، ولا سيما في التهائم ، فإن الرطوبة تكون عالية فيها، ولهذا يتضايق الناس من أثر الحر فيهم ، مع أن الحرارة ذاتها فيها لا تكون عاليـة كثيراً ، وانما مبعث هذا التضايق هو من الرطوبة المصحوبة بالحرارة ، ولهذا صار بعض مواضع التهائم من شر الأمكنة على وجه هذه الأرض .

ولهذا الجو الرطب الحار أثر في حالة النـــاس ، في صحتهم وفي نشاطهم . فانتشرت الأمراض في الأماكن التي تكثر فيهـــا السباخ والمستنقعات ، وفتكت بالناس ، وتكدس فيها الذباب وتجمعت الحشرات الملاءمة مثل هذه الأجواء لمعيشة هذه المخلوقات .

ولهذا السبب المذكور ، عاشت في هذه الأرضين ونمت النباتات التي تألف المناطق الحارة الرطبة ، والأعشاب التي تعيش على المستنقعات وفي الأرض الرطبة، من حشائش وقصب وأعشاب .

أما في الداخل ، فإن الحرارة فيها تكون جافة ، ولهذا فإنها لا تكون حديدة الطبع ، على نحو حر السواحل . ويتلطف الجو في الليالي في النجـــاد ، فيكون الليل رحمة للناس ينسيهم قسوة النهار وشدة حرارته ، وفقر الحياة ، لا سيما إذا كمل القمر ، وصار قرصاً يسحر الناظرين . فإن سحره يكون عاماً ، يشمـــل الغني والفقير ، ويبعث في النفوس الرقة والحنان ، ويثير فيها عواطف الشجن المنبعثة من قسوة الحياة وشحها وفقر الأرض ، فتأخذ النفوس الرقيقة في مناجاته بقيثارة بسيطة ذات ثقوب ، ينفخ فيها لتخرج منها أصواتاً تسمع القمر فعـــل سحره في نفس الانسان المعذب في النهار المحروم من طيب الحياة التي ينعم بها

أهل الأرضين الآخرون ، أو بآلات بسيطة أخرى صنعوها بأيديهم لتعبر أناملهم وأوتار آلاتهم الساذجة عن إحساسهم الحزين،ثم لا يكتفي أصحاب هذه النفوس الرقيقة في الغالب بإرسال نغمات الحس العميق من آلة ، بل يقرنون تلك النغمات الحزينة بنغمات بشرية تنطق بما في قلب الإنسان من حس وألم دفين ، يوحيه اليه ألم الحرمان ، ودغدغة النسيم العليل ، وسحر القمر وتلألؤ مصابيح السماء . فتخرج نغمات شجية حزينة ، تعاد وتكرر،لتسبح السماء على هذا الجمال الساحر ، ولتفسر للسامع نوع الحياة في هذه البقاع التي وهبتها الطبيعة عاطفة عميقة ، وسحراً فاتناً في الليل ، وحرمتها خيرات الدنيا في أثناء النهار ، ولتخبره بهذه النغمات المعادة أن الحياة هنا بسيطة لا تعقيد فيها ولا التواء وأنها معدودة محدودة، وعودة وتكرار .

وقد يعجب الغريب من تغزل العرب بـ (ريح الصبا) ، ومن مدحهم لها الى حد بلغ الإفراط ، فليس في أشعار العالم ، ولا في نثرهم ، شعر أو نثر فيه هذا القدر من التغزل بريح من الرياح . وقد لا يفهم الغريب أي تعليل يقدم اليه ولا يقبله ، وخير جواب يقدم اليه هو حضوره بنفسه الى جزيرة العرب للاستمتاع بلذة (الصبا) في ليلة مقمرة من ليالي الجزيرة ، وسيعرف عندئذ سحر دلال (الصبا) وسحر تغزل العرب بها ، على عكس (السموم) ، التي تشوي الوجوه ، وتعمي العيون ، فتجعل الشعراء يلعنونها ، والناس يتذاكرون ثقلها وشدتها عليهم وما ألحقته بهم من مهالك وأضرار .

والمطر هو غوث ورحمة لسكان جزيرة العرب ، يبعث الحياة للأرض ، فتنبت العشب والكلأ والكمأة والأزهار ، ويحول وجهها العابس الكئيب الى وجه مشرق ضحوك ، فيفرح الناس وتفرح معهم ماشيتهم ، ويخرج أهل الحضر الى البادية للتمتع برؤية البساط الأخضر المطرز بالأزهار ، وللاستمتاع بالمنظر الساحر الذي كسا الربيع به وجوه البوادي ، ولصيد الغزلان والحيوانات الأخرى التي جاءت هي أيضاً من مآويها لتشارك الطبيعة في فرحتها ، ولتشبع نفسها بعد جوع وعطش. وتفرح الإبل ، ويدر لبنها ، ويكثر نسلها ، وتتضاعف بذلك ثروة أصحابها ، ويسير الجمل متبختراً فخوراً بنفسه معتزاً ، بطراً لا يقضم منها إلا ما يعتقد أنه طعام لذيذ له ، يقضم من موضع ثم يتركه بطراً الى موضع آخر ، وقد كان قبل ذلك من جوعه يأكل كل ما يقع بصره عليه ويراه . أفليس من حق العرب

اذن أن تسمي المطر (غيثاً) ؟ وأن تفزع وتتوجع من انحباسه ، وأن تفزع الى آلهتها تتوسل اليها لإرسال سحب المطر اليها ، وتتقرب اليها بالدعاء وبصلوات (الاستسقاء) و (الاستمطار) ، لترسل اليها غيثاً يغيثها ويفرج كربتها يدرأ عنها مصيبة تنزل بها إن انحبس المطر ؟ لذلك كان انحباس (الغيث) عند العرب كارثة يتألم منها الناس ، ويكابد من فداحتها الحيوان .

والجفاف هو الصفة الغالبة على جوّ جزيرة العرب ، فالأمطار قليلة والرطوبة منخفضة في الداخل إلا التهائم والسواحل ، فإنها ترتفع فيها كما ذكرنا . ولكن الطبيعة رأفت بحال بعض المناطق ، فجعلت لها مواسم تنزل فيها الغيث ، لإغاثة كل حي ، وأهمهـا اليمن . أما عمان ، فينزل فيها مقدار منه ، ينفع الناس ويعينهم على تصريف أمورهم . وأما باقي الأقسام ، فإن أكثرها حظوة ونصيباً من المطر ، هي النفود الشمالي ، وجبل شمر ، فتنزل بها الأمطار في الشتاء ، فتنبت أعشاب الربيع . وأما الصحارى الجنوبية فلا يصيبها من المطر إلا رذاذ ، وقد تبخل الطبيعة عليها حتى بهذا الرذاذ[1] .

وينهمر المطر أحياناً من السماء وكأنه أفواه قرب قد تفتحت ، فيكوّن سيولاً عارمة جارفة تكتسح كل ما تراه أمامها ، وتسيل إلى الأودية فتحولها إلى أنهار سريعة الجريان . وقـد لاقت (مكة) من السيول مصاعب كثيرة ، وكذلك المدينة والمواضع الأخرى[2] وقد يهلك فيها خلق من الناس ، وتسيل مياه السيول الى مسافات حتى تصب في البحر ، وقد تبتلعها الرمال فتغوص فيها وتجري في باطن الأرض مكونة مجاري جوفية ، تقترب وتبتعد عن قشرة الأرض على حسب قربها أو بعدها منها ، وعلى حسب قرارة المكان الذي تسيل عليه . وقـد تبلغ البحر فتدفق عيوناً في قاعه ، كالذي نشاهده في الخليج بين الساحل والبحرين .

وقد استفاد أهل اليمن بصورة خاصة وأهل حضرموت والحجـاز من السيول بأن بنوا سدوداً للسيطرة عليهـا ، ولحبسها الى حين الحاجة . وسد (مأرب) الشهير هو خير تلك السدود شهرة وصيتاً ، وقد غذى بإكسير الحيـاة مساحات واسعة من أرض سبأ . وقد وجد السياح آثار سدود قديمة في نواحي من الحجاز ونجد والعربية الجنوبية تعود الى ما قبل الإسلام ، بنيت في مواضع ممتازة تصلح

---

١ حافظ وهبة : جزيرة العرب (٦) .
٢ البلاذري ، فتوح البلدان (٥٣ فما بعدها) ، الازرقي ، تاريخ مكة .

جيداً لمنع مياه السيول من الذهاب عبثاً ، حتى إن المهندسين المحدثين رأوا انشاء سدود جديدة في هذه الأمكنة للاستفادة من مياه السيول لإحياء أرضين موات في الزمان الحاضر ، يمكن قلبها الى مزارع وجنان خضر .

إن أرض اليمن التي صادقتها الطبيعة فأحسنت اليها ووهبتها هبات تحسدها المناطق الأخرى عليها ، وهبتها أمطاراً موسمية ووهبتها جواً حاراً رطباً في تهامة

منظر يمثل المدرجات المقامة على الجبال والتلال لزراعتها
من كتاب « Jemen, das VerboteneLand » لمؤلفه Guenther Pawelke (الصفحة ٥٦)

اليمن ، وجواً معتدلاً في المرتفعات ، وجواً لطيفاً في الجبال ، ووهبتها نباتات كثيرة تناسب تنوع هوائها وحيوانات عديدة كثيرة ، ومعادن متنوعة ، هي

أرض ذات حظ كذلك بعدد سكانها ، فإنها حتى اليوم من أكثف مناطق جزيرة العرب وأكثرها سكاناً . وسكانها ثروة مهمة ومصنع غذى بلاد العرب والبلاد الإسلامية بموجات من القبائل ، نشرت الإسلام والثقافة العربية في البلاد المفتوحة، كما أنه موّن العراق وبلاد الشام في الجاهلية بقبائل ، استوطنت هناك ، فكوّنت حكومات مثل حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة ، ونسب المناذرة ونسب الغساسنة يرجع الى اليمن . ولا تزال اليمن تقذف بالألوف من أبنائها كل عام ، تقذف بهم في شتى الأنحاء إلى سواحل إفريقية المقابلة ، حتى بلغ بعضهم الولايات المتحدة وانكلترة ، فكوّنوا فيها جاليات يمانية . ويعيش اليوم زُهاء مليون يماني خارج اليمن ، هاجروا من بلادهم لظروف مختلفة لا مجال للبحث فيها في هذا المكان . وقد سبقهم أجدادهم قبل الإسلام ، فطفروا حدود جزيرة العرب وذهبوا الى مصر والى بعض جزر اليونان .

ويعد سكان « الجبل الأخضر » سعداء حقاً بالقياس الى سكان جزيرة العرب الساكنين في العربية الشرقية أو في البوادي الواقعة في جنوب المملكة العربية السعودية ، فإن الغيوم المثقلة بالأبخرة تصطدم بمرتفعات هذا الجبل فتضطر الى تفريغ شحنتها عليه . ولهذا توافرت المياه فيها ، فاستغلها السكان وزرعوا عليها . وصارت الأودية من مواطن الحضارة القديمة التي تعود الى ما قبل الإسلام بزمان طويل ، كما صارت سفوح الجبال والمرتفعات موارد رزق للزرّاع ، يستهلكون من الحاصل ما يحتاجون اليه ، ويصدرون الباقي لمن يحتاج اليه من أهل بقية جزيرة العرب . وما زال أهل البلاد يزرعون على سنة آبائهم وأجدادهم الأقدمين . وقد شاهد السياح آثار سدود في هذه المناطق شيدها الأقدمون للتحكم في الأمطار التي تسقط بغزارة وتجري سيولاً .

وفي مثل هذه الأمكنة نجد كتابات دونها أصحابها شكراً لآلهتهم على إنعامها عليهم بالغلة الوافرة وبالحصاد الغزير ،أو لانعامها عليهم بأرض مخصبة ولمساعدتها إيّاهم على حفر بئر زودتهم بماء للسقي وللزرع ، ووجود هذه الكتابات دليل ناطق على وجود الحضارة فيها في تلك الأيام .

أما مواطن الحضارة ، فقد وزعتها الطبيعة بيدها ، وما برح هذا التوزيع معترفاً به . وزعتها عليها توزيعها للنبات والمعادن والماء . ففي المحلات ذوات الحظ التي أحبها الماء ، فظهر فيها واحاتٍ وعيوناً واحساءً أو رطوبات أو

نهيرات أو مطراً موسمياً ، ظهر الاستقرار ، وتولدت الحضارة على قدر إسعاف الماء ومقدار إستعداده لوضع نفسه في خدمة الأهلين وفي خدمة حيواناتهم وزراعتهم لا فرق بين أن يكون الماء في باطن الجزيرة أو في الأدية أو في السواحل ، ولو أن لموقعه دخلاً في ازدياد ثروة أصحابه وفي تمكينهم من الاتصال بالخارج ، فتنفتح عندئذ لهم أبواب العالم ، كأن يكون الموضع على طريق ، أو على مفترق طرق ، أو على ساحل أو مرفأ بحري ، أو على مقربة من بلد متحضر مثل العراق أو بلاد الشام . أما إذا كان واحة منعزلة ومحلاً نائياً ، فإن الحضارة لا يمكن أن تظهر بالطبع فيه ظهورها في الأماكن المذكورة .

ومن هنا نرى الحضارة والإستقرار والميل الى الاستقرار في بلاد اليمن وحضرموت أظهر وأبرز من أي مكان آخر ، نرى فيها حكومات بالمعنى المفهوم من الحكومة قبل الميلاد بأمد طويل ، ونرى فيها مدناً عامرة مسوّرة لها حصون وقلاع وتنظيمات وتشكيلات حكومية ، ونرى فيها مؤسسات دينية ترعى المسائل الروحية والروابط التي تربط بين البشر وخالقهم ، ونرى أنظمة وقوانين مكتوبة وسدوداً وأبنية عالية مرتفعة وفناً ما زالت جذوره ومظاهره خالدة باقية في دم الناس . ثم نرى مثل ذلك أو قريباً منه في أعالي الحجاز وفي الأرضين الداخلة في هذا اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية . أما الواحات والعيون والآبار ، فقد صارت مستوطنات لتموين المستقر والقادم بالماء والتمر وبشيء من الحبوب والخضر ، واذا كانت على طريق صارت مأوى للقوافل ، ولهذا لم يكن من الممكن قيام حكومات كبيرة بها ، لعدم توفر الشروط اللازمة لإنشاء الحكومات الكبيرة بها ، واضطرت إلى توثيق علاقاتها بأهل البادية ، وإلى الارتباط بهم بروابط العهود والمواثيق ودفع الإتاوة لمنعهم من التعرض لهم بسوء .

فالحياة في جزيرة العرب ، هي هبة الماء ، ولهذا انحصرت في هذه الأماكن المذكورة ، وصار فرضاً على رجال القوافل وأصحاب التجارات المرور بها ، وهو أي الماء ، الذي رسم لأصحاب الجمال خطوط سيرهم إلى المواضع التي يريدون السير اليها ، وحدد لهم معالم الطرق . وأقام لهم أماكن الراحة ، وما زال الأعراب والتجار يسلكون تلك الطرق ، للوصول إلى الأماكن النائية بالوسائل القديمة التي استعملها سكان الجزيرة قبل الإسلام ، وبالمركب القديم ، بطوله وبعرضه وهو الجمل . ولكن وسائط النقل الحديثة التي نافسته وأحالته مكرهاً على التقاعد

واضطرته الى الانسحاب من بعض الطرق ، لا تزال تطارده وتنافسه في الطرق الأخرى ، وعندئذ لا بد من حدوث مشكلات بالنسبة الى تربية هذا الحيوان الصحراوي القديم الذي أخلص للبادية ، وبقي على اخلاصه لها ، ولكن الأمر ليس بيد البادية ، وانما هو بأيدي قاهر البوادي والأرضين والجواء ، السيد الإنسان .

أما السواحل ، فخلقت من سكانها رجال بحر ، يحبّون ركوب البحر واستخراج ما فيه للتعيش به ولبيعه وتصريفه في الأسواق ، كما جعلتهم أصحاب ضيافة ، يقدمون الماء وما عندهم من طعام الى السفن القادمة اليهم ، ويعرضون ما عندهم من سلع فائضة لبيعها لهم ، ويشترون من أصحاب تلك السفن ما عندهم من بضاعة نافعة ، فتحولت الى أسواق للبيع والشراء ، المتعاملون بها مزيج من القادمين اليها من أنحاء الجزيرة ومن الوافدين الأجانب القادمين اليها من الخارج ، وقد اجتذبت هذه الأمكنة اليها الغرباء ، فسكنوا بها ، واختلطوا بسكانها ، وتولدت بها أجيال مختلطة ممتزجة الدماء ، كلما كانت قريبة من ساحل مقابل ، كان مظهر الإختلاط والامتزاج أظهر وأكثر ، ولهذا احتضنت تهامة والسواحل العربية الجنوبية عدداً كبيراً من الإفريقيين ، هاجروا اليها من السواحل الإفريقية المقابلة واستقروا فيها بكثرة ، واختلطوا بأصحاب البلاد الأصليين . أما سواحل عمان والخليج ، فقد اجتذبت اليها الهنود والفرس ، وقد عُثر في مواضع من سواحل عمان على بقايا عظام بشرية اتضح انها من بقايا الهنود (الدراوديين) ، سكان الهند القدماء . ولم ينس البحارة وأصحاب السفن اليونان سواحل جزيرة العرب ، فأقاموا مستعمرات يونانية في مواضع متعددة منها سيأتي الكلام عليها فيما بعد .

وقذفت الطبيعة بالأعراب في كل مكان من أمكنة الجزيرة ، حتى زاد عددهم على الحضر . والصفة الغالبة عليهم ، أنهم لا يرتبطون بالأرض ارتباط المزارع بأرضه ، ولا يستقرون في مكان إلا إذا وجدوا فيه الكلأ والماء ، فإذا جفّ الكلأ وقلّ الماء ، ارتحلوا إلى مواضع جديدة . وهكذا حياتهم حياة تنقل وعدم استقرار ، لا يحترفون الحرف على شاكلة أهل الحضر ، ولذلك صارت حياتهم حياة قاسية ، يتمثل مجتمعهم في القبيلة . فالقبيلة هي الحكومة والقومية في نظر البدوي .

وإن حياة على هذا الشكل والطراز ، حياة لا تعرف الراحة والاستقرار ، ولا تعترف إلا بمنطق القوة . حياة جلبت المشقة لأصحابها ، والمشقة لمن يقيم على

مقربة منهم من الحضر . فهم في نزاع دائم فيما بينهم ، ثم هم في نزاع مع الحضر ، ولهذا كان خطر البداوة على العرب،يوازي خطر الغرباء البعداء عليهم، وصارت البداوة مشكلة عويصة لكل حكومة ، ولا تزال مشكلة حتى اليوم. ولن تحل إلا باقناع الأعراب بأن حياة الإستقرار خير لهـم وأفضل من حياتهم التي يحيونها ، وذلك بوسائل لا يدخل الكلام عليها في حيز هذا الكتاب .

الطرق البرية :

من نتائج غلبة الطبيعة الصحراوية على أرض جزيرة العرب ، أن انحصر امتداد شرايين المواصلات فيها في أماكن خططتها الطبيعة نفسها للإنسان ، فجعلتها تسير بمحاذاة الأودية ومواضع المياه والآبار ، وهي السبل الوحيدة التي يستطيع المسافر ورجال القوافل أن يستريحوا في مواضع منها ويحملوا منها الماء . وتنتهي رؤوس هذه الطرق بالعراق وببلاد الشام في الشمال وبالعربية الجنوبية وبموانئها في الجنوب، وهناك طرق أخرى امتدت من العربية الشرقية الى العربية الغربية ، ولها مراكز اتصال بالطرق الطولية الممتدة من الشمال الى الجنوب في الغالب . وقد أقيمت في مواضع من هذه الطرق مواضع سكنى ذات ميـاه من عيون أو آبار ، عاشت ونمت بفضل منة مائها عليها ، فصارت منـازل مريحة لرجال القوافل يحمدون آلهتهم عليها ، ويحمد أصحاب ذلك الماء آلهتهم على منتها عليهم باعطائهم ذلك الكنز العظيم الذي أعانهم على العيش وجلب لهم كرم التجار .

وفي العقد الحساسة من هذه الطرق نشأت المستوطنات، ومواطن السكنى القديمة انتشرت في أماكن متباعد بعضها عن بعض في الغالب ، فكان لهذا التوزيع أثر كبير في الحياة الاجتماعية والحياة السياسية والعسكرية ، ولا شك . ومـا الطرق الحالية التي يسلكها الناس اليوم إلا بقية من بقايا تلك الطرق القديمة التي ربطت أجزاء الجزيرة بعضهـا ببعض ، كما ربطت الجزيرة بالعالم الخارجي . ونجد في مخلفات تلك المستوطنات مواد مستوردة من مواضع بعيدة ، هي دليل بالطبع على أن الانسان كان يقطع الطرق قبل الميلاد بمئات من السنين ليتاجر ويبيع ويشتري دون أن يبالي ببعد المسافة وطول الشقة وصعوبة الحصول على وسائل النقل وما يتعرض له ، وهو في طريقه الى هدفه ، من مخاطر وأهوال .

وتعد (نجران) من أهم المواضع المهمة الحساسة في شبكة المواصلات البرية قبل الإسلام ، ففيها تلتقي طرق المواصلات الممتدة في الجنوب ، وفيهـا يتصل الطريق البري التجاري المهم الممتد الى بلاد الشام ، فيلتقي بطريق العربية الجنوبية ومنها يسير الطريق المار الى (الدواسر) فالأفلاج فاليمامة أو ساحل الخليج ومنه الى العراق .

ولم تموّن الطرق البرية المارة بالعربية الشرقية أي (ساحـل الخليج) العراق بتجارة جزيرة العرب وبالمواد المستوردة اليها من الهند ، بل موّنتها بموجات من البشر منذ آلاف السنين قبل الميلاد . فقد كانت القبائل العربية النازحة من الجنوب لأسباب متعددة تحطّ رحالها على هذا الساحل ، انتهازاً لفرصة ملائمة ترحـل خلالها الى العراق لتستقر فيه . وقد سلكت أكثر القبائل العربيـة التي استوطنت العراق هذا السبيل حينما هاجرت اليه قبل الميلاد وبعده أيضاً .